

كتاب (ابن ماجد الملاح)

كتاب ظهر منذ ربع قرن ولكنه مسافر فى تراثنا..

ألفه الدكتور أنور عبدالمليم أستاذ علوم البحار بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية فهو خير من يكتب عن الملاح الذى قاد سفينته «فاسكو دى جاما» إلى الهند.

ابن ماجد الذى لا يزال أهل «عدن» يقرأون له الفاتحة كلما خرجوا إلى البحر..

ابن ماجد صاحب المؤلفات الغزيرة فى علوم البحار والملاحة التى لم تكتشف إلا فى القرن العشرين.

ويزخر التراث العربى الذى آل إلينا من القرون الوسطى بقصص الأسفار والمغامرات البحرية التى قام بها الملاحون والتجار العرب فى المحيط الهندى وبحر الصين فيما بين «سيراف» على الخليج الفارسى، و«كانتون» بالصين منذ القرن التاسع والقرن العاشر بعد الميلاد كما فى قصص «التاجر سليمان» و«أبو زيد السيرافى» العربى.

ونهلنا الآداب الأوربية من هذه القصص كما يقرر هذا المستشرق دى خويه (De Goeje) ١٨٩٠ - ١٨٩٣ أثناء تحليله للأساطير الأوربية المبكرة فى كتابه:

La Légende de st. Brandan

وتدخل هذه القصص كلها فى محيط الادب الشعبى (الفولكلور) العالمى للقرون الوسطى وإلى قصصنا الرائدة فى هذا المضممار، تنضم الكتب العربية فى «العجائب» التى تصف الغريب من حيوانات البحر وظواهره وأهواله كما فى كتاب «عجائب الهند» لـ بزرغ بن شهريار (القرن العاشر الميلادى) و«تحفة الألباب» لأبى حامد الأندلسى الغرناطى (١١٦٠م) و«عجائب المخلوقات» للقرزوينى (١٢٨٠م) و«عجائب البر والبحر» للمدشقى الصوفى (١٣٢٥م).

وتعكس هذه الكتب والقصص بشكل واضح، عمق التجربة العربية للملاحين والتجار العرب فى البحار الجنوبية، سواء أكان ذلك فى المحيط الهندى الذى كان يسمى بحر الهند،

وجزره وخلجانه أم في البحار المتراصة التي دفعتهم مغامراتهم إليها كأرخيل الملايو وبحر الصين، إلا أن هذه القصص والحكايات لم تكن في جملتها ذات طابع علمي أو عملي يوصلنا إلى الاستدلال على الخبرة الملاحية العلمية للملاحين العرب في ذلك الوقت، والتي كانت ولاشك على درجة كبيرة من التقدم.

يقول المؤلف الدكتور أنور عبدالعليم أن الاعتقاد قد ساد لفترة طويلة من الزمن بأن مثل هذه الكتب لم تكتب على الإطلاق إلى أن أكتشف في العشرينات من هذا القرن مخطوط عربي قديم يرجع عهده إلى المائة التاسعة الهجرية (القرن الخامس عشر الميلادي) كانت مكتبة المخطوطات بباريس قد حصلت عليه في عام ١٨٦٠ من استاذ جزائري تولى التدريس في مدرسة اللغات الشرقية بباريس في ذلك الوقت.

وظل المخطوط منسيا حتى الثلث الأول من القرن العشرين حين قام المستشرق الفرنسي (جبريل فراند Gabriel Ferand) بالتحقق من قيمته العلمية فنشره لأول مرة فيما بين (١٩٢١-١٩٢٣) بطريقة التصوير الفوتوغرافي وعلق عليه.

وأسجل هنا في اعتزاز انه توجد من هذا المخطوط نسخة بدار الكتب بالقاهرة محفوظة بالخزانة التيمورية.

ويعتبر هذا المخطوط في الواقع أهم وثيقة في الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الإطلاق. وتنحصر أهميته في أنه أقدم الوثائق الجيدة التي وصلتنا والتي دونت عن الملاحة وفنون البحر في البحار الجنوبية بين الساحل الشرقي لأفريقيا وبلاد الصين بلغة من اللغات، كما أنه يرد فيه لأول مرة ذكر اسم لعلم جديد هو «علم البحر» بمعناه الواسع مما نعرفه اليوم باسم علم الأتيانوغرافيا أو الأتيانولوجيا - Oceanology or Oceanography . ogy

ثم إن هذه الوثيقة تلقي كثيرا من الضوء على مقدار ما بلغه العرب من تقدم في فنون البحر والملاحة حتى القرن الخامس عشر وعلى مدى تأثير البرتغال بالفكر العربي وبالتعاليم والتقاليد الملاحية العربية بشكل عام وفي المحيط الهندي بشكل خاص. فضلا عن ذلك، فإن هذه الوثيقة

تحتوى على كثير من المصطلحات العلمية والفنية التى تعتبر فى حد ذاتها ثروة كبرى للغة العربية فى الوقت الذى نسمى فيه لتعريب العلوم.

وينحدر ابن ماجد من أسرة ملاحين فأبوه ربان ماهر حتى كان يلقب بربان البرين (أى بر العرب وبر المعجم)

ومن الطريف أن هذا الأب الربان دون بدوره تجاربه الملاحية فى مصنف ضخيم ولكن شعرا فى أكثر من ألف بيت

وفى وصف الملاحه فى البحر الأحمر وسمى ديوانه هذا:

(الأرجوزه الحجازية)

«وابن ماجد» أى الربان الابن لا يعرف على التحديد تاريخ ميلاده إلا أن نشاطه كان فى أوجه فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى حيث كانت كتبه فى وصف عالم البحار فى أيدى ربابنة المحيط الهندى والخليج وساحل الزنج.

وأهم كتب ابن ماجد، كتابه:

(كتاب الفوائد فى اصول علم البحر والقواعد)

وهو يؤكد فى مقدمته أنه من العلوم المضبوطة العقلية يمكن الربان من الوصول إلى البلد المطلوب دون ميل أو انحراف كما تعرف به خطوط الطول والعرض ومنها يمكن تحديد القبلة أو مواقع البلدان بالضبط بدلا من الطريقة الشمسية التى تعتمد على سقوط ظل الأعمدة فى دائرة مقسمة.. كما يمكن للانسان أن يتكسب به عيشه وأن يركب البحر وهو مطمئن القلب والنفس.

ثم يؤكد «ابن ماجد» أهمية التجربة واكتساب الخبرة بزيادة التحصيل ودوام السؤال عن المسائل الغامضة فيه وينصح الربابنة بالبعد عن الخيلاء عند كمال العلم.

وهنا نلمس التواضع وهو شيمة العلماء الأفاضل

يتواضع «ابن ماجد» فى الحاليين عند وجوب التأكد وعند كمال العلم.

ويؤكد هذا قوله بعد أن سجل فى الفصل الثالث من الكتاب المنازل الفلكية والنجوم الملاحية التى يهتدى بها الربان فى عرض البحر:

ومن أراد زيادة المعرفة عن هذه النجوم وأصول تسميتها فإننا نحيله إلى كتاب أبي الريحان محمد بن احمد البيروني الخوارزمي بعنوان (الأثار الباقية عن القرون الخالية) ففيه وصف متعمق لمجموعات النجوم واصل تسميتها ولعلم الأنواء المشهورة عند العرب وارتباطها بالمناخ).

ويحق لتراثنا العلمي أن يعتز بأن ابن ماجد العالم الخبير قد أعاد كتابة مؤلفه العظيم وكتابه الرائد أكثر من مرة.

إنه الأسلوب العلمي.. وانه التحقيق والتوثيق ثم الصبر على الإعادة سبيلا إلى الإجداد والافتقان.

لقد أفاد مهرة الملاحين من كتاب ابن ماجد سواء أكان هذا عن طريق القياسات الفلكية التي أعاد هو تحقيقها مرارا أم عن علامات البر من جبال وما إليها.

وقد طرح ابن ماجد في كتابه (الفوائد) المعلومات والإرشادات التي يجب على الربان الإحاطة بها ومنها معرفة المنازل والإشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها ومواسم السفر في البحر وآلات السفينة وما يحتاج إليه الربان منها.. وتغير المياه ومد البحر وجزره.

وهذه كلها معلومات اقيانوغرافية من الطراز الأول.

وبما توصل إليه «ابن ماجد» تقسيم النجوم والكواكب حسب درجة لمعانها إلى ست مراتب وإرشادات ملاحية للسير ليلا بين السواحل المختلفة.

يقول ابن ماجد في الفصل السابع من كتابه (والله ما صنفت هذه القياسات المنتخبات إلا بعد أن كررت عليها عشرين سنة)!!

وقد وصف ابن ماجد في كتابه الجزر الكبار المشهورات وأولها بطبيعة الحال جزيرة العرب وجزيرة القمر وهي جزيرة مدغشقر وجزيرة سومطره وجزيره جاوه وجزيرة الغور وبها معدن الحديد الغوري والسيوف الصافية القاطعة لجميع الحديد.

ترى هل انحدر منها السلطان الغوري؟ ربما

والجزيرة السادسة: سيلان

والجزيرة السابعة: زنجبار وبها أربعون مسجدا

ويمضى بالوصف الى الجزيرة العاشرة

وابن ماجد فى الفصل الثانى عشر من كتابه العظيم يقف وقفة طويلة محتشدة عند البحر الاحمر وجزره وشعبه المرجانية ويتكلم بدقة عن المسافات بين المراسى المختلفة وعن طبيعة القاع فى بعض الأماكن وعن الأعماق فى مداخل البرور بدقة بالغة ويحذر من الشعب المختلفة.

وقد عدد ابن ماجد أسماء الكتب والمراجع الفنية التى يجدر بدارس البحر استيعابها وأغلبها فى الجغرافيا الوصفية والفلكية والرياضية.

وهى الطريقة المنهجية فى التأليف

وهكذا رسم العرب خرائط بحرية للإرشاد الملاحى

كما أدخلوا تعديلات قيمة على آلات الملاحة والرصد منذ عرفوا الملاحة فى عرض المحيط.. ومن هذه الآلات: الاسطرلاب أى آلة قياس ارتفاع الشمس والنجوم ولم يصنع من الاسطرلاب أحسن مما صنع العرب بشهادة علماء أوروبا أنفسهم فى هذا المجال.

وفى متحف باريس اسطرلاب من صنع احمد بن خلف من منتصف القرن العاشر الميلادى يفوق فى صناعته وتدرجه ما صنع من هذه الآلة فى أوروبا حتى القرن الثامن عشر الميلادى.

وكانت أوروبا تجهل تماما كل شىء عن البوصلة البحرية واستخدامها فى الملاحة حتى وفدت سفنهم الى المشرق أبان الحروب الصليبية فعرفوا البوصلة من العرب لأول مرة وشاع استعمالها بعد ذلك فى أوروبا بل كانت تعد أعظم اكتشاف ملاحى بالنسبة لهم لأن سماءهم تكتنفها الغيوم والسحب فى أغلب أوقات السنة وبخاصة فى الأصقاع الشمالية ولا يسهل دائما التعرف على الجهات الأصلية ليلا بالنجوم فى تلك الأصقاع.

وكان العرب أسبق من أهل أوروبا بزمن طويل فى معرفة الوقت وتحديدته إلى جانب تحديد الاتجاه سواء أكان ذلك فى البر أم البحر. ولتقدم العرب فى «علم الميقات» سبب قوى هو حاجتهم لتحديد الزمن لمعرفة أوقات الصلاة، مثلما كانت حاجتهم ماسة أيضا إلى تحديد القبلة فى الممالك والأمصار التى فتحوها.

ويزخر التراث العربي برسائل وكتب قيمة ألفت سواء في المشرق أو في المغرب (الاندلس) فيما بين القرنين التاسع والخامس عشر الميلادي وذلك في علوم:
الميقات وفي تحديد الاتجاه وخطوط طول البلاد وعرضها.

وكان العرب يتعرفون على الوقت نهارا بالمزاولة وليلا بتحديد حركات القمر والنجوم في أبراج السماء

أما في الجغرافيا الوصفية فقد كانت سواحل المحيط الهندي وجزره معروفة جيدا للعرب وبتفصيل كبير بينما هي مجهولة تماما بالنسبة للبرتغال حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تقريبا.

ولقد عرف أهل اليمن وعدن بخاصة فيما عرفوا الساحل الافريقي الشرقي كله تقريبا وذلك حتى قبل الاسلام بزمن.

وقد وصف الرحالة والمؤلفون العرب بعد ذلك هذا الساحل بتفصيل كبير ورسموه.

ومن هؤلاء (المسعودي) و (ابن الوردى)

أعود في الختام إلى ابن ماجد لأسجل إحدى طرائفه فقد ألف كتابه الثاني أقصد نظمه شعرا. وهذا الكتاب اسمه:

(حاوية الاختصار في أصول علم البحار)

ماذا أقول؟ من شابه أباه فما ظلم.

وهكذا ظفر البحر من أبيه بأرجوزته الحجازية ومنه بحاوية الاختصار.

ويعد: فإن كتاب ابن ماجد الملاح يقع في خمسة فصول:

الفصل الأول عن سيرة ابن ماجد وحياته

والفصل الثاني عن (أثر الفكر العربي على الملاحة البرتغالية وتاريخ البوصلة البحرية)

الفصل الثالث عن (قصة ارشاد ابن ماجد، لفاسكو دي جاما الى الهند عام ١٤٩٨م)

والفصل الرابع: عن مؤلفات ابن ماجد

أما الفصل الخامس فيزخر بالمصطلحات العلمية كالمصطلحات الملاحية وأنواع السفن العربية.

ومراتب البحارة
وادوات السفينة وأجزاؤها
ثم مصطلحات بحرية
ثم تحقيق بعض المواقع الجغرافية والتاريخية التي ورد ذكرها في كتاب ابن ماجد
أولاً: البحار
ثانياً: الجزر
ثالثاً: الرؤوس المشهورة
رابعاً: السواحل والشعور التي دخلها ابن ماجد
ثم النجوم الملاحية ومرادفاتها بالعربية وما يقابلها في اللغات الأجنبية
ومن هذا يتضح الكم الكبير من المصطلحات العربية التي دخلت في اللغات الأجنبية خاصة
الأسبانية بمنطوقها العربي تقريبا
مثل: الدبران Aldebran
القائد Alkaid
الفرد Alphard
أمير البحر Adimiral
دار الصناعة Arsenal
رزق Risk أى المغامرة
وصل Wissil الألمانية
وبعد مرة أخرى:

ليست المسألة فقط دور ابن ماجد في قيادة فاسكو دي جاما إلى الهند بل Radeurigo de lobi أحد أعضاء رحلة كولبوس، أول أوربي يضع قدميه على أرض العالم الجديد أمريكا متأثرا بالمسلمين في الأندلس حتى أنه بعد عودته إلى أسبانيا أعلن إسلامه على الرغم من وجود محاكم التفتيش فيها، في ذلك الوقت.

ليتنا نعرف أمجاد الإسلام الرائعة والباتعة ولا أزيد.